MALAYSIAN JOURNAL FOR ISLAMIC STUDIES
© PENERBIT UNIVERSITI SULTAN ZAINAL ABIDIN
e-ISSN: 2550-2042
http://dx.doi.org/

PENERBIT Universiti Sultan Zainal Abidin

MALAYSIAN JOURNAL FOR ISLAMIC STUDIES MJIS

https://journal.unisza.edu.my/mjis

الأحوال السياسية لبلاد المغرب والأندلس قبيل قيام دولة الحفصيين

THE POLITICAL CONDITIONS OF THE MAGHREB AND AL-ANDALUS BEFORE THE ESTABLISHMENT OF THE HAFSID STATE

SHADIA QASHOUT ALMABROUK ALAZOUMI

Fakulti of Arts, Al-Asabaa, Gharyan University, Libya

*Corresponding author: shad.alazoumi@gu.edu.ly

Received Date: 11 November 2023 • Accepted Date: 11 December 2023

Abstract

The Islamic Maghreb witnessed the succession of several states under its rule, the goal of which was to extend and expand its influence over the region, including the Almohad state, which controlled the Maghreb and al-Andalus. The Almohad authority reached a severe stage of weakness, and its power began to decline and its influence diminished after its defeat in the Battle of Hisn al-Uqab in the year (609 Hij/1212 AD). Three countries inherited its possessions, which played a dangerous role in the Islamic Maghreb, including the Hafsid state in the 'Near Maghreb', led by the Hafsid governor Abu Zakaria Muhammad ibn Abd al-Wahid al-Hafsi, who took advantage of the weakness and disintegration of the Almohad state and declared his independence from it and established the Hafsid state in Africa. This historical development coincided with The fall of the most important Andalusian cities into the hands of the Spanish Christians. The balance of power in al-Andalus was distorted in favor of the Christians, which prompted the people of al-Andalus to leave their country and migrate to the Islamic Maghreb.

Keywords: *Political History, Military History, the Maghreb, al-Andalus, the Hafsid state*

المخلص

شهد المغرب الإسلامي تعاقب عدة دول على حكمه كان هدفها بسط وتوسيع نفوذها على المنطقة، ومنها دولة الموحدين التي سيطرت على بلاد المغرب والأندلس وبلغت السلطة الموحدية مرحلة شديدة من الضعف، وأخذت تتراجع قوتها وتقلص نفوذها بعد هزيمتها في معركة حصن العقاب سنة (609ه/1212م) حيث ورِثت أملاكها ثلاث دول لعبت دوراً خطيراً في المغرب الإسلامي، منها الدولة

الحفصية في "المغرب الأدنى" بقيادة الوالي الحفصي أبي زكريا محمد بن عبد الواحد الحفصي الذي استغل ضعف وتفكك الدولة الموحدية فأعلن استقلاله عنها وتأسيس الدولة الحفصية في أفريقيا، وهذا التطور التاريخي تزامن مع سقوط أهم المدن الأندلسية في أيدي النصارى الأسبان، فاختلت موازين القوى في بلاد الأندلس لصالح النصارى مما دفع بأهالي الأندلس لترك بلادهم والخروج منها والهجرة إلى المغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: العلاقة بين المغرب والأندلس. الدولة الحفصية.

Cite as: Shadia Qashout Almabrouk Alazoumi. 2023. al-Ahwal al-Siyasiyah li Bilad al-Maghrib wa al-Andalus Qubayla Qiyam Dawlat al-Hafsiyin [The political conditions of the Maghreb and al-Andalus before the Establishment of the Hafsid State]. *Malaysian Journal for Islamic Studies* 7(1): 28-40.

المقدمة

لقد كان لبلاد المغرب أهمية كبيرة لدى الباحثين؛ لما حفِل به تاريخها من أحداث مهمة أثرت بشكل كبير في مجريات الحياة من الناحية السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والعسكرية، فقد كانت بلاد المغرب الأدنى قبيل عهد الموحدين تمر بفترات مضطربة من تاريخها في العهد المرابطي من هجمات عديدة من الدولة الموحدية، حيث قامت بحملتين عسكريتين بقيادة عبد المؤمن بن علي، الأولى سنة (547ه/1152م) تمكن من خلالها من الاستيلاء على بجاية وقسنطينة، والحملة الثانية سنة (555هـ/1160م) استطاع من خلالها أن يمد نفوذه إلى البلاد التونسية، ووضع كامل الشمال الأفريقي تحت سياسة الموحدين.

ولقد شاهدت الدولة الموحدية بعد الضم الموحدي تطوراً ملحوظاً مقارنة بما كانت عليه في السابق منذ زحف بني هلال عليها، فقد انتعشت الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد، إلا أنّ هذا الاستقرار لم يدم طويلاً إذ سرعان ما اندلعت الاضطرابات الداخلية التي بدأ بها الأعراب، مستغلين بذلك بُعد المقر الحكومي لدولة الموحدين ممّا شكل حافزاً كبيراً لهم في السيطرة على إفريقية، كما قامت صراعات خارجية كانت تهدد أمن واستقرار الدولة من بينها (ثورة بني غانية) التي حدثت في جزر البليار الواقعة شرق بلاد الأندلس، وأغلب الظن أن هذه الصراعات أدت إلى تصدع دولة الموحدين وانهيارها مما أدى لظهور دويلات جديدة بمختلف أنحاء المغرب.

أمّا بالنسبة للأندلس فقد شاهدت خلال القرن السابع الهجري أحداثًا سياسية وعسكرية كثيرة كان من بينها تراجع الحكم الموحدي، وضعف قوة المسلمين بعد تمكن الممالك النصرانية من السيطرة على معظم

مناطقها، وقد تمكن الموحدون في بادئ الأمر من بسط نفوذهم على معظم مناطق الأندلس، كما تمكنوا من القضاء على الجزر الشرقية (ميورقة ويابسة ومنورقة) وإخضاعها لسلطتهم، حيث تمكن الخليفة الناصر من الاهتمام بشؤون الدولة السياسية والعسكرية والإدارية كإعداد الجيوش، وتصنيع الأسلحة وشراء العتاد الحربي، وتعيين بعض الوُلاة على معظم مناطق الأندلس كإشبيلية وبسطة وغرب بلاد الأندلس، ولكن عندما نشطت الحملات الصليبية على بلاد الأندلس خلال القرن السابع الهجري، واشتد عليهم الهجوم العنيف أدى ذلك لسقوط متواصل للعواصم الأندلسية؛ مما دفع الأهالي خلال القرنين السابع والثامن عشر الهجريين لمغادرة الأندلس التي أصبحت ملكاً للنصارى فتوجه جزء كبير منهم لبلاد المغرب، وانضم عدد من الأدباء والشعراء والعلماء للأهالي المهاجرين لبلاد المغرب فكان لهم الأثر الكبير في تطور تلك البلاد وازدهار الحياة الفكرية والسياسية فيها.

وبذلك فإنّ الباحثة ترى بأنّ الحديث عن قيام الدولة الحفصية واستقرارها السياسي يتطلب إعطاء فكرة تاريخية عن حالة الدولة التي كانت تحكم بلاد المغرب الأدنى قديما؛ لكي نستطيع معرفة الظروف السياسية التي تمر بها بلاد المغرب قبل قيام الدولة الحفصية.

وكذلك فإن دراسة العوامل السياسية والاقتصادية التي كانت سببا في سقوط الدولة الحاكمة في المغرب الأدنى يعطينا فكرة واضحة عن الأسباب التي قامت إثرها دولة بني حفص.

أهمية البحث

تُعد دراسة التاريخ الأندلسي واحدة من أبرز المحطات المهمة في دراسة التاريخ الإسلامي؛ إذ يحمل في طياته أروع صور البطولة المحملة بالمجد الحضاري، إلا أنه في فتراته الأخيرة قدّم صور الحزن المؤلمة؛ وذلك بسبب ما حمله هذا التاريخ من آلام وحزن لم يُشهد له من قبل.

إن أحداث الأندلس لا تمثل إلا حقيقة تاريخية باقية في سجلات التاريخ تمثلت في الصفحة البطولية الرائعة التي قدمها مسلمو الأندلس في الدفاع عن دينهم ومعتقداتهم الإسلامية، وهي قلة ما يقدمه لنا تاريخ عن أمة من الأمم استهترت بالدفاع عن دينها وحياتها ووجودها حينما سقطت أشهر المدن الأندلسية في سلسلة من المعارك منها انقلبت بعدها المدن الأندلسية وظهرت ما يسمى بـــدول الطوائف الصغرى بعد أن كانت هناك دولة تحكم المدن الأندلسية جميعها.

مشكلة البحث

يمثل تاريخ بلاد المغرب الإسلامي مرحلة مهمة من مراحل التاريخ الإسلامي التي وجب علينا تسليط الضوء عليها، وعدم إغفال أي صفحة من صفحاتها التاريخية البطولية وخاصة تلك الفترة التي سبقت قيام الدولة الحفصية حيث كانت مليئة بالأحداث التاريخية من حيث انهيار الدولة الموحدية وبلاد الأندلس وظهور دولة أخرى كعنصر قوي في صنع الأحداث التاريخية المميزة في بلاد المغرب والأندلس.

تساؤلات البحث

1. كيف كانت الأوضاع السياسية لبلاد المغرب قبل قيام الدولة الحفصية؟
2. ما هي القوى التي ظهرت في المغرب الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين؟

منهجية البحث

لقد اعتمدت الباحثة في هذه الدراسة على المنهج التاريخي والمنهج التحليلي كلما اقتضت الضرورة لذلك لربط الأحداث التاريخية وتحليلها للوصول لاستخلاص النتائج.

تقسيمات الدراسة

قسمت هذه الدراسة إلى مبحثين:

المبحث الأول: الوضع السياسي لبلاد المغرب والأندلس:

لقد تميز الوضع السياسي لبلاد المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بنوع من الاضطرابات والفوضى في بعض الأحيان، والهدوء والاستقرار في أحيان أخرى، وقد شهدت بلاد المغرب عند قيام دولة المرابطين انعكاسا كبيرا في ظروف المعيشة، حيث كانت في سابق عهدها تعيش حالة من الفوضى والاضطرابات، مما جعل بلاد المغرب بحاجة ماسة لقائد يحافظ على أمن الدولة واستقرارها، أمّا بلاد الأندلس فقد ساءت الأوضاع السياسية للبلاد بعد سقوط الدولة الأموية ممّا جعلها هدفًا لملوك النصارى، ونتيجة لهذا الخطر الذي بدأ يهدد أمن البلاد واستقرارها، الأمر الذي دفعها للاستنجاد بيوسف تاشفين حيث لم يتردد في

تقديم المساعدة لهم، فقد عبر بجيوشه البحر ودخل الأندلس وتمكن من هزيمة النصارى في معركة الزلاقة عام (1086م)، وبسط نفوذه على الأندلس، وتخلص من الملوك الظالمين الذين كانت حياتهم مقتصرة على اللهو والعبث، وبعد وفاة يوسف تاشفين سنة (500ه/1106م) تولى المرابطون من بعده حكم البلاد (Yaḥyāwī 2011).

حكمت الدولة المرابطة المغرب والتي كان لها دور كبير في تغيير الخريطة السياسية للعالم؛ نظراً للبسالة والقوة التي كان يُعرف بها جنودها وقادتها وحاكمها يوسف بن تاشفين، وقد أصبحت الدولة المرابطية مملكة وراثية منذ بداية تولية يوسف بن تاشفين ولده على ولاية عهده، في سنة (496ه/1102م)، فاختار ولده لولاية عهده في سنة (533ه/1138م)، واختار تاشفين ولده إبراهيم لولاية عهده سنة (539ه/1145م) ، ويُعد ابن يوسف المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين بالمغرب الأقصى، حيث اجتمعت فيه صفات الزعامة والشجاعة والقيادة، والتفت حوله قلوب المرابطين، وشرع في بناء مدينة مراكش عاصمته الجديدة سنة (454ه/1062م)، وبسط نفوذه على المغرب الأقصى في سنة (467ه/1074م) ونجح في توحيد المغرب الأقصى، واستطاع إيقاف الزحف النصراني على الأندلس وضمها إلى دولة المرابطين، استمرت فترة حكمه من سنة (500ه إلى 537ه)، وبعدما توفي الأمير علي في سنة (537ه/1142م) تولى أحفاده الحكم من بعد حيث حاولوا الحفاظ على أمن بلاد المغرب وبسط نفوذهم على بلاد الأندلس التي كانت تواجه خطر المماليك، فقد عاشوا في رخاء طيلة الحكم المرابطي حوالي خمسين عاماً، إلا أن الخطر الموحدي الذي كان يواجههم بين الحين والآخر عندما تولى ابنه تاشفين الحكم من بعده، فدخل في صراع مع دولة الموحدين، وفشل في صد هجماتهم، وقد انتهى به الأمر إلى وهران حيث قُتل في سنة (539ه/1144م)، وفقدت الدولة قوتها، وسقطت أجزاء كثيرة منها في أيدي الموحدين (al-Ṣallābī 2013).

ولقد كان من أبرز الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين انغماس حكامهم وأمرائهم في الملذات والشهوات، خاصة في أواخر عهد (علي بن يوسف)، وكذلك ظهور السفور والاختلاط بين الرجال والنساء، حيث بدأت الدولة المرابطية في أواخر عهدها تفقد قيمتها مع انتشار الانحراف والفساد الأمر الذي دفع الرعايا المسلمة بأن تستجيب لدعوة محمد بن تومرت (al-Ṣallābī 2014).

وأيضا كثرة الذنوب والمعاصي بالرغم من وجود العلماء سواء في بلاد المغرب أو الأندلس وذلك بعد أن فُتحت البلاد وكثرة الأموال في الدولة فتحركت بعض النفوس الضعيفة ناحية الذنوب والكبائر، وتغيير نظام الحكم من نظام الشورى إلى النظام الوراثي سبّب نزاعاً عنيفًا على منصب ولاية العهد بين أولاد علي بن يوسف، وأيضا من أهم العوامل التي أهكت دولة المرابطين أنها مرّت بأزمة اقتصادية حادة من سنة (524ه إلى 530ه)؛ وذلك نتيجة لانحباس المطر عدة سنوات عنها، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب سنة (532ه) وانتشار المجاعة والوباء بأهل قرطبة، كذلك القحط الذي حلّ ببلاد المغرب والأندلس حيث يبست الأرض وهلك الزرع وهلكت الدواب، ولكننا نجد السبب الرئيس في سقوط الدولة المرابطية هو الهجوم المسلح

عليها من قبل الدولة الموحدية حيث قام رجل من قبائل المصامدة البربرية يدعى "محمد بن تومرت" بثورة عليهم وعندما بدأ الضعف والفساد ينتشر في صفوف المرابطين، تدخلت الدولة الموحدية كمصلحين لها وقد كان شعارهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (al-Sirjānī 2011).

تزعم الحركة الموحدية "محمد بن تومرت" الذي تمت له البيعة سنة (515ه)، وكان أول من بايعه على الحكم (عبد المؤمن بن علي)، و(أبي حفص الهنتاتي)، وقد انتشر صيت الخلافة الموحدية؛ نظراً لما قامت به من انجازات عظيمة في بلاد المغرب والأندلس (Baḥrī 2007).

وشرع محمد بن تومرت في محاربة المرابطين، حيث جمع قواته لمحاربتهم والتخلص منهم إلا أنه توفي قبل أن يحقق هدفه، وتابع عبد المؤمن الكومي مسيرته بعد مبايعته، حيث تمكن من تجميع قواته والقضاء على الدولة المرابطية (Yaḥyāwī 2011).

وفي بداية الحكم الموحدي مرت الدولة بثلاثة أطوار، دور المهدوية والذي تولى فيه المهدي بن تومرت حكم الدولة، ثم الطور الشوري الذي أجمع فيه أعيان الدولة على تولي عبد المؤمن بن علي الخلافة حيث عمل على تنظيم شؤون الدولة وتوحيد صفوفها ودخلت دولته في طور الازدهار، فاتسمت بالتوسع العمراني والنهوض الفكري، وبعدما تمكن عبد المؤمن من توحيد بلاد المغرب، اتجه إلى بلاد الأندلس لمواجهة خطر المماليك الإسبان، فقام بمحاربتهم وطردهم من بعض العواصم الأندلسية التي استولوا عليها، وكان من أهم أعمال الخليفة عبد المؤمن قيامه ببناء معسكر لتدريس وتعليم الرجال على جميع فنون القتال، كذلك أنشأ مصانع ومخازن ضخمة للأسلحة، من أجل محاربة الصليبيين في بلاد لأندلس (‘Abd al-Jabbār 2014).

كما استطاع أن يستعيد المرية سنة (552ه/1157م) وكذلك تونس سنة (555ه/1160م) (السرجاني 2011)، وفي سنة (557ه/1161م) حدثت معركة المرج الرقاد في غرناطة مع ابن مردنيش حاكم شرق الأندلس، إلاّ أنّ هذه المعركة انتهت بهزيمة الموحدين، وعندما سمع عبد المؤمن بن علي بذلك جهز جيشاً بقيادة ابنه أبي يوسف يعقوب متوجهاً إلى الأندلس وتمكن من هزيمة ابن مردنيش في معركة فحص الجلاب سنة (560ه/1165م)، وانسحب بقواته إلى مدينة مرسية، وفي سنة (567ه/1171م) دخل ابن مردنيش تحت طاعة الموحدين وبعد وفاة عبد المؤمن سنة (558ه/1163م) في مدينة الرباط وهو في طريقه للجهاد في الأندلس خلفه ابنه أبو يوسف عبد المؤمن في الحكم حيث عمل على مدّ نفوذ بلاده ودعم أركان دولته وإخماد الفتن في بلاد الأندلس، كما تمكن من فتح حصن الروم وتوجه لبلاد المغرب بعد أن استكمل أموره في الأندلس، وقد ظل يحكم الدولة الموحدية اثنين وعشرين عاماً منذ سنة (558ه/1163م) حتى (580ه/1185م)، إلاّ أنّ أمره قد انتهى متأثرًا بجراحه التي أصيب بها أثناء دخوله مدينة (شنترين) البرتغالية الواقعة في شمال شرق لشبونة أيضا (al-Sirjānī 2011).

وفي الوقت الذي غابت فيه القوة الموحدية بوفاة الخليفة الموحدي أبي يوسف استغل الإسبان الفرصة لتشديد حصارهم على المدن الأندلسية، وتولى الحكم من بعده ابنه الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور بعد وفاة

أبيه أبي يوسف عبد المؤمن سنة (580ه/1184م) حيث لُقِّب بالمنصور، وبلغت فترة حكمه حوالي خمسة عشر عاماً فكان أقوى شخصية في تاريخ الموحدين، وقد اعتُبِر عهده العصر الذهبي للدولة الموحدية، وكانت من أشد الثورات التي واجهته في بلاد الأندلس ثورة بني غانية في جزر البليار بقيادة إسحاق بن محمد، حيث بدأوا باستمالة الموحدين في بادئ أمرهم وأرسلوا إليهم الهدايا والغنائم، إلاّ أنّ الموحدين لم يهتموا بأمرهم، لكن مع مرور الوقت حاولوا إدخالهم في طاعتهم إلاّ أنّ الأمر لم يتم حيث قويت شوكة بني غانية، ورفضوا الدخول في طاعتهم، كما استطاع الخليفة الموحدي المنصور في بداية عهده الاستيلاء على جزيرتين من جزر البليار سنة (585ه/1189م)، إلاّ أنّ ملك البرتغال استغل وضع بلاد المغرب، واشتغال الخليفة الموحدي، حيث قام بمحاصرة بعض مدن المسلمين بدعم من دولتي ألمانيا وإنجلترا، حيث استطاع التقدم حتى غرب مدينة إشبيلة، وبعد أن تمكن الخليفة المنصور من القضاء على حركة بني غانية، بدأ يفكر في وضع خطة محكمة من أجل القضاء على أطماع النصارى في بلاد الأندلس، والخطر الذي كان يهدده من ملك قشتالة وملك البرتغال، إلاّ أنّ ملك قشتالة كان يسعى لطلب الصلح والهدنة مع المنصور، وفعلا عُقد الصلح بينهما وفق قواعد الإسلام (al-Sirjānī 2011).

أما ملك البرتغال فقد حدثت مواجهة بينه وبين المنصور، وتمكن المنصور من تحقيق نصر عظيم على البرتغال، وعاد المنصور إلى بلاد المغرب لمواجهة ما تبقى من الأعداء، وبعد أن تمكن من القضاء على بني غانية، قاد المنصور جيشه في شهر شعبان سنة (591ه/1195م) عند حصن الأرك وهو حصن يبعد عشرين كيلو متراً من قلعة رباح ومحلها اليوم (Sat Maria De Alarcos) غرب المدينة الإسبانية الحديثة (De Alarcos) والأرك تعتبر نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس، وقد حدثت في شهر شعبان سنة (591ه/1195م) جنوب طليطلة، لمواجهة ملك قشتالة الذي قام بشن غارات على العواصم الأندلسية والتي بدأت تشكل خطراً كبيراً على أمن البلاد، فجهز السلطان يعقوب المنصور لقتال ألفونسو وجمع جنده والعديد من المتطوعين من الأمازيغ والعرب، وانضمت إليهم الجيوش الأندلسية فتكون له جيش ضخم حيث اختلف المؤرخون في تقدير عدده، ويُقال أنه بلغ الستمائة ألف مقاتل (al-ʿĀmirī 2014).

حيث قام الخليفة المنصور بوضع خطة استراتيجية محكمة للقتال، فقام بتقسيم جيشه إلى نصفين، وكان القسم الأول في المقدمة والثاني خلف التلال، وكان زعيم هذه الحركة "أبو يحي بن أبي حفص" من الأندلس أيضا قد اختار "عبد الله بن صناديد" وقد اتخذ النصارى الجزء العلوي من أرض المعركة بينما المسلمون كانوا يقاتلون في الجزء الأسفل، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع المسلمين من قتالهم وجهادهم تحت راية الإسلام بالرغم من كثرة عدد جيوش الروم والنصارى التي بلغت حوالي ثلاثمائة ألف مقاتل، وعندما اشتد الهجوم على الكفار بدأوا بالفرار إلى الربوة التي كان فيها ألفونسو ليعتصموا بها إلاّ أنّ المسلمين قد حالوا دون وصول الكفار إلى تلك الربوة، وتقدمت إليهم جيوش من العرب وهنتاتة والأغزاز والرماة وقضوا عليهم، وبذلك انكسرت شوكة ألفونسو، وقام المسلمون بعد انتهاء المعركة بحصار قلعة الأرك التي فرَّ إليها (لوبيز دي هاروا)

ومعه خمسة آلاف من جنده، قاوم المسيحيون قليلا في بادئ الأمر ثم اضطروا للاستسلام، وطلبوا الصلح فوافق السلطان المنصور مقابل إخلاء سبيل الأسرى من المسلمين (al-Sirjānī 2011).

وبعد أن حقق المسلمون النصر بقيادة المنصور الموحدي ومعه الأندلسيون، وتكبد الأسبان خسائر فادحة في الجنود قُدِّرت بنحو مائة وستة وأربعين ألف قتيل، ومن المسلمين قُتِل حوالي عشرون ألفاً، وغنم المسلمون من الخيل عدداً كبيراً وأسروا منهم حوالي ثلاثة عشر ألف شخص، وبعد انتهاء المعركة عاد المنصور إلى اشبيلية لينضم شؤون البلاد، حيث أصلح للمسجد مأذنته (صومعته) التي عُرِفت "بالمدورة"، وبالأسبانية (La Giralda)، وكانت من أهم نتائج معركة الأرك الدعم المادي والمعنوي للمسلمين، كما عُقدت معاهدة بين قشتالة والمسلمين نصت على وقف القتال بينهما لمدة حوالي عشر سنوات، بداية من سنة (594ه/1198م) (al-ʿĀmirī 2014).

وبعد وفاة الخليفة الموحدي الناصر في ربيع الأول سنة (595ه/1199م) خلفه ابنه محمد الناصر وعمره خمسة عشر عاماً، ولم يكن ذا كفاءة وخبرة في إدارة حكم البلاد في الوقت الذي كانت تواجه مطامع كثيرة، فقد بدأ ألفونسو سنة (606ه) بمهاجمة الأراضي الأندلسية، قبل انتهاء مدة الهدنة بالاستعانة بـــ(Pedro II) ملك أرغوان، وملك البرتغال (Edfunso) إضافة إلى الامدادات التي كانت تأتيهم من فرنسا وإيطاليا، حيث استعان أهل الأندلس بالخليفة الناصر فقام بتجهيز جيوشه نحو إشبيلية ومن ثم قرطبة، كما قام بمحاصرة (حصن شلبطرة)، وقامت الجيوش الإفرنجية بمحاصرة جيش الموحدين حوالي ثمانية أشهر مما أنهك الجيش الموحدي نتيجة التعب والمرض والجوع، في الوقت الذي كانت فيه القوات القشتالية تحاصر (حصن رباح)، وعندما اشتد الحصار على يوسف بن الحجاج قام بتسليم الحصن لهم ممّا أثار ذلك غضب الناصر فتوجه بجيوشه واستطاع اقتحام وفتح قلعتي (Salvaterra) و (Galatrava la Viejas) الواقعتين على الحدود القشتالية سنة (608ه)، وقد أثرت هذه الهزيمة على ملك قشتالة فاستغل الوضع الحرج الذي تمر به الجيوش الموحدية، فقام بتجهيز جيوشه التي قدّرت بنحو مائة ألف مقاتل وخرجت الجيوش الصليبية من طليطلة باتجاه الجنوب لمواجهة الجيوش الإسلامية التي بلغ عددها مائتي ألف مقاتل، وقد التقى الجيشان في سهل غرب العقاب في الرابع عشر من صفر سنة (609ه) حيث عُرفت هذه المعركة بـــ(Batali da las naves Toaosa) وقد انتهت بهزيمة المسلمين وقتل أعداد كبيرة منهم (السرجاني 2011)، واستطاع الروم السيطرة على بياسة (Baeza) فدخلوها وحرقوا المساجد، كما استولوا على (Baza) ، وبقي الخليفة الناصر في بلاد المغرب مستخلفاً الحكم من بعد وفاته لابنه المستنصر بالله البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، ونتيجة لتردي الأوضاع في بلاد المغرب وعدم كفاءة المستنصر في إدارة البلاد ظهرت حركة جديدة من قبيلة زناتة والتي استقلت عن حكم الموحدين (al-ʿĀmirī 2014). وأُسست دولة عُرفت بدولة بني مرين (al-Ḥajjī 1981)، ومن هنا بدأ الضعف يدب في صفوف الدولة الموحدية، بعد وفاة الخليفة الناصر، حينما تولى الحكم من بعده أشخاص لا يدركون أمور الحكم في البلاد، فنجد الخليفة المأمون بن المنصور الذي تعاون مع مماليك النصارى، قد تنازل على عدة حصون في بلاد الأندلس

لملك قشتالة حيث قام ببناء كنيسة في شارع مراكش مجاورة لجامع القرويين الأمر الذي أدى إلى دخول الدولة الموحدية في صراع داخلي كلفهم الكثير من الدماء والأموال، ممّا أدى إلى سقوط هذه الدولة سنة (668ه/1269م) رغم أن الدولة قد انتهت فعلاً عام 1212م وليس 1269م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة، إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين ومن قبلهم بني عبد الواد في تلمسان، وبني حفص في تونس (al-Ṣallābī 1998).

المبحث الثاني: إنهيار الموحدين وقيام الدولة الحفصية في إفريقيا:

إنّ للدولة عمراً كما أنّ للإنسان أيضاً، فهي تمر بمرحلة الشباب والقوة، ثم الضعف والانهيار، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من وجود عدة أسباب كانت وراء سقوط الدولة الموحدية، فالبعض يرجع أسباب السقوط إلى عملية الاقطاع التي منحها الموحدون لبني زيان وبني حفص في المغرب الأوسط، والأدنى، وأيضا ضعف السلاطين بداية من عهد الخليفة الناصر.

حيث تولى الحكم من بعده سلاطين ضعاف الشخصية، انغمسوا في الملذات، وتجاهلوا القاعدة التي تقول بأنّ الترف مظهر من مظاهر النضج، واكتمال قوة الدولة، وكان من بينهم الخيفة يوسف المستنصر، الذي فقد هيبته وضعُفت يداه في السيطرة على ومام أمور الدولة؛ ممّا جعلهم يفقدون هيبتهم (السرجاني 2011)، وكذلك ظلمهم الفضيع للمرابطين والاعتداء على أموالهم، حيث تعامل الموحدون معهم بوحشية وعنف وكفروهم واستولوا على أموالهم وسبَوْا نسائهم، وهكذا نشأت الدولة الموحدية منذ بدايتها على أساس دموي في إرساء دعائمها بسفك الدماء وانتهاك الأعراض من مؤسسات ابن تومرت، وبعد وفاة محمد بن تومرت خلفه عبد المؤمن بن علي وسار على نفس المنوال من بعده مخالفين لسنة الله ورسوله فانتقم الله سبحانه من الظالمين فجعل بأسهم فيما بينهم حتى قُضي أمر الدولة إلى زوال (al-Ṣallābī 1998).

وهناك أسباب أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها، وهي أنّ الحروب الصليبية التي أعلنها الأسبان على دولة الموحدين عبر مراحل متعددة، والتي تطوع فيها الرجال من دول غرب أوروبا مع كثرة عدد المماليك النصارى، ومع أنّ الجيوش الموحدية بقيادة الناصر استطاعت تحقيق النصر عليهم في معركة الأرك، إلاّ أنّ وفاة الناصر وتولي ابنه يعقوب الحكم، والذي قاد العديد من الهجمات ضد الصليبيين والتي باء أغلبها بالفشل، الأرم الذي أدى إلى إنهاك الجيش الموحدي في مواجهة العدو، والذي دفع المماليك لترك الأندلس وتوحيد صفوفهم في معركة العقاب سنة (609ه/1212م) والتي كان لها دور كبير في ضعف وانهيار الدولة الموحدية (Idrīs 2014).

ومن جهة أخرى يرى المؤرخ عبد الحميد حاجيات (ينظر: مقال بعنوان "الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات ومساهماته في كتابة تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط"، مقال للدكتور: بلعربي خالد، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر): أن أهم أسباب الهزيمة التي لحقت بالجيش الموحدي هي معركة العقاب التي لم تكن حتما نهاية لهذه الدولة، ولكنها فككت أوصالها، وصدّعت صرحها الذي شيّده عبد المؤمن بن علي وحلفاؤه، فتأزم الوضع بين السادة والشيوخ الذين مثلوا القبائل المناصرة للدولة الموحدية، وكان تخاذل الجيش عن أداء مهامه المنوطة به أحد الأسباب التي أدت إلى تلك الهزيمة، وخاصة في عهد الخليفة يعقوب، وبوفاة الخليفة أبي يعقوب يوسف انقطع العطاء الذي كان يساند به الجنود، فيذكر ابن عذاري المراكشي، في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب أن الجيش خرج إلى معركة العقاب وهو محبط، و لم يستطع البعض أن يرفع سيفه، أو يُشرع حتى رمحه، وتعتبر معركة العقاب (ينظر معركة Battle of Las Navas de Tolosa موقع Wikipidia على الانترنت) والعقاب مطل على خارج غرناطة نحو ثمانية أميال وهو مجاور لمدينة البيرة الأندلسية، وقد وقعت هذه المعركة جيان الحالية على بعد خمسة كيلومترات شمال شرق لاكارورينا وقد وقعت سنة (609ه/1212م) في عهد الخليفة الموحدي أبي عبد الله محمد الناصر الموحدي بداية تغلغل الضعف في جسم الدولة الموحدية المنهزمة، خصوصا بعد وفاة هذا الخليفة الموحدي سنة (610ه/1213م) والذي تولى بعده خلفاءُ ضِعاف مثل الخليفة المستنصر بالله (أبي يعقوب بن محمد الناصر) الذي شهد عهده الكثير من الثورات والفتن.

وبعدما توفي الناصر رابع خلفاء الموحدين بالمغرب سنة (610ه) في غزوة العقاب، بدأ الموحدون من بعده يأتمرون بأوامر حديثي الأسنان كابنه يوسف المستنصر، الذي نصّبه الموحدون أميرا و لم يبلغ الحلم، وشغلته أحوال الصّبا، وجنونه عن القيام بأمور السياسة وتدبير الملك، وبعد وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة (620ه/1223م) خلفه عبد الواحد بن يوسف بن عبد الله المؤمن فحكم ثمانية أشهر وتسعة أيام وكانت نهايته القتل سنة (621ه/1224م)، وتولى من بعده الحكم أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور الذي انتهى أمره بالقتل سنة (624ه/1227م)، بعد حكم دام أربع سنوات، وجاء بعده أبو العلاء إدريس الأول بن المنصور الملقب بـــ(المأمون)، وقام أهل الأندلس بمبايعته، بينما بايع أهل المغرب الأقصى بمراكش (يحي بن الناصر المكني) المعروف بأبي زكريا ولقّب نفسه بالمعتصم، ودار بين الخليفتين صراع كبير على الحكم، ثم وقع نزاع آخر بين المأمون وأخيه أبي موسى الذي أعلن تمرده بمدينة سبتة، وصارت بلاد المغرب في عهد هؤلاء الخلفاء مسرحاً للصراع والفوضى، حيث انتهى الخلاف سنة (646ه/1248م) بموت المأمون، و لم يعد هناك اهتمام بالنظم والمؤسسات، واستقلالهم من أجل مصالحهم الشخصية، ممّا ساعد على ازدياد حدة الثورات الداخلية التي لحقت بالخلفاء الموحدين، كثورة والي مرسية بقيادة أبي عبد الله محمد المتوكل على الله والمعروف بابن هود الذي كان أول أمره من الأجناد، مقيما في سرقسطة، ولما ظهر الخلل في دولة الموحدين ثار عليهم بالصخيرات، ولُقّب بالمتوكل على الله سنة (625ه) فقاتله والي مرسية وكان من بني عبد المؤمن بن علي من

الموحدين، فظفر به ابن هود ودخل مرسية، وخطب باسم المستنصر العباسي الخليفة ببغداد، وقاتله والي شاطبة، ففاز ابن هود فزحف عليه المأمون (إدريس بن يعقوب) فاعتصم ابن هود بمرسية، وحاصره المأمون مدة، وعجز عن فتحها فرحل عنها، ومن ثَمّ سارت الأمور على هذا النحو من الضعف إلى تفكك هذه الدولة وانهيارها، فكان ضعف السلطنة الموحدية في السيطرة على الحكم في بلاد المغرب والأندلس قد أدى إلى ظهور هذه الزعامات المحلية التي استقلت في أماكنها بالمغرب، وأقامت دويلات لعبت دوراً لا يمثل الدولة الواحدة (Idrīs 2014).

ومن جهة أخرى فإنّ المؤرخ (Henri Terrasse) والمستشرق الفرنسي والعالم بالأثار الإسلامية يرى في كتابه "تاريخ المغرب الأقصى" بأنّ القبائل العربية كان لها دور كبير في ضعف الدولة الموحدية، وأنّ الخليفتين عبد المؤمن والمنصور أخطأ في إجبار العرب على القدوم إلى المغرب الأقصى، حيث أنهم لم يكونوا راغبين في الانتقال، وأنّ هذه القبائل ساهمت في الاضطرابات التي حدثت عام (625ه/1228م) والسنوات التي تليها، ممّا ساعد على تفاقم الأوضاع التي كانت تعاني من الفوضى، وبالرغم من دخول العرب إلى المغرب الأقصى رغم إرادتهم، فإنّهم قد رأوا أنّ من حقهم التصرف حسبما تمل إليه مصالحهم العاجلة، فقد تحالفوا مع الذين ظنوا أنّهم يهيئون لهم أحسن الفرص في المستقبل القريب (Le Tourneau 1982).

بالإضافة إلى ذلك فإنّ هناك أسباباً أخرى ساهمت في تفتيت دولة الموحدين وهي ثورات الأعراب المتتالية، حيث كانت قبائل بني هلال وبني سليم التي سكنت إفريقية والمغرب الأوسط في البداية وبعدها المغرب الأقصى، قد تحالفت مع بني غانية ضد الموحدين، ثم دخلت الدولة في صراع داخلي بين أعدائها ممّا أدى إلى حدوث ثورات داخلية ساهمت بشكل كبير في دمار الدولة الموحدية، وكذلك فإنّ الانهيار العسكري الذي أصاب الدولة الموحدية كان من ضمن أسباب تفتت تلك الدولة، كما أنّ النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة قد ترك أثراً بالغاً في التنظيم العسكري للدولة، فقد كانت دولة الموحدين على مستوى رفيع من التعبئة العسكرية للدولة، وحققوا انتصارات عديدة على خصومهم إلاّ أنّ جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته في السيطرة على البلاد، وقد ظهر هذا العجز واضحا في معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون، ممّا أدى إلى تفكك جيش الموحدين، وضعف المبادئ في نفوس الجنود، وأصبح همهم الوحيد هو الغنائم (al-Ṣallābī 1998).

ومن ضمن الأسباب أيضا ضعف مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحدين، فقد كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد ومرتكزة على المهدية التي كانت تهدف إلى التجديد، حيث نجح الخليفة عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة، ومن دولة الفكرة إلى دولة الوراثة، ممّا أدى لانحرافٍ في المبادئ التي قامت عليها فكرة الموحدين، وممّا لا شك فيه أنّ النزاع على الخلافة بين الموحدين كان من ضمن أسباب تفكك هذه الدولة؛ لأنّهم لم يستطيعوا أن يضعوا نظاماً ثابتاً للخلافة، وقد كان لهذا النزاع آثاراً كبيرة على الدولة، فمنذ وفاة الخليفة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم

إلى الاستنجاد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين، كما استنجدوا بأعدائهم من النصارى، فوجدت مراكز القوى في التراع فرصة لبسط نفوذها على الدولة، لتقوم بتعيين وعزل من تشاء، ممّا سبب ضياع هيبة الدولة وزوالها، حيث دخل زعماء الموحدين في تحالفات مع النصارى من أجل أن يحقق كل منهم النصر على خصومه، فمثلا المأمون عندما نكث عهد أهل مراكش وبايعه أهالي الأندلس، واستنصر بملك قشتالة فاشترط عليه أن يبني كنيسة للروم في مراكش، كذلك أخذ عشرة حصون يختارها بنفسه، ممّا دفع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم، بالإضافة إلى تقليص أراضي الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس، كان من ضمن الأسباب التي أدت إلى تفكك الدولة، ونتيجة لضعف السلطة المركزية للبلاد اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت عن الموحدين، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين، وتبعتها إفريقية، وتقلص نفوذ المغرب الأقصى حتى سقوط عاصمتهم في يد المرينيين، وخلال فترة الانحلال ازداد ضغط المماليك المسحية على الأراضي الأندلسية فمن الشمال قشتالة، ومن الغرب البرتغال، الأمر الذي أدى إلى خلع أهالي الأندلس طاعة الموحدين عن أعناقهم.

وبذلك دخلت الأندلس في طوائف ثلاثة، فقام سنة (626ه/1226م) زيان بن مردنيش، وفي سنة (630ه/1233م) ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة، ونازع بن هود على زعامة الأندلس، وسيطر على غرب الأندلس سنة (636ه/1239م)، وزالت هيبة الموحدين من نفوس أهالي الأندلس، وتحولوا إلى تونس حيث القوة الموحدية الثانية والجديدة بقيادة الحفصيين، واضطرت الأندلس إلى محاربة النصارى، فسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى، وفي نفس الوقت الذي انفصلت فيه الأندلس وإفريقية، بدأت أحوال الخلفاء الموحدين في المغرب تضطرب، وبدأت الولايات تستقل، فسيطر قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بنو عبد الواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وكل هذه الانقسامات قد ساهمت في تدمير الدولة الموحدية، ولا ننسى الثورات التي حدثت في بلاد الأندلس ضد الموحدين كثورة محمد بن مردنيش التي لم يتم القضاء عليها إلاّ بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى من أجل إنهاء النفوذ الموحدي في بلاد الأندلس (al-Ṣallābī).

الخاتمة

كان لسقوط الدولة الموحدية الأثر الكبير في حدوث تغيير جذريّ شاهدته بلاد المغرب على جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية، حيث ساهم اضمحلال الدولة الموحدية وضعفها وانشغال حكام الأندلس في مواجهة حروب الاسترداد ممّا سارع ذلك في هجرة أعداد كبيرة من المسلمين الفارين من الاضطهاد والمدن التي سقطت في أيدي النصارى، ويمكن القول بأنّ ثورة بني غانية الذين هم من بقايا المرابطين كانت من الأسباب المباشرة لانهيار قوة الموحدين؛ حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقائدية ناهضت الأصول العقائدية التي

قامت عليها الدولة الموحدية، قد التزمت بأصول منهج أله السنة والجماعة، فحاولت هذه الثورة تدمير الموحدين وحاربت نفوذهم بكل ما تملك، واستمرت عقودا متتالة في محاربتهم، ممّا يُرجح بأن تكون ثورة بني غانية وما صاحبها من صراعات وحروب سبباً كبيراً في ضعف الدولة الموحدية وانهيارها، كما اعتُبر سقوط الدولة الموحدية أكبر حدث عرفته بلاد المغرب الإسلامي؛ وذلك لما قدمته هذه الدولة من خدمات واسعة في جميع المجالات، فخلال الفترات الأولى من حكم الموحدين عاشت بلاد المغرب فترة من الأمن والاستقرار إلاّ أنّ سقوط هذه الدولة يعتبر نهاية مأساوية؛ لأنّها تعتبر من أكبر دول المغرب الاسلامي، فقد نتج عن سقوط الدولة الموحدية حدوث انعكاسات كثيرة تكمن في قيام كيانات سياسية عملت على أنقاضها.

References

‘Abd al-Jabbār, Ṣiddīqī. 2014. Suqūṭ al-dawlah al-Muwaḥḥidīyah (Dirāsah taḥlīlīyyah fī al-asbāb wa al-tadā‘iyyāt). Jāmi‘at Abī Bakr Balqāyid, Tilimsān, al-Jazā’ir.

al-‘Āmirī, Muḥammad Bashīr Ḥasan Rāḍī. 2014. *Tārīkh Balad al-Andalus fī al-‘Aṣr al-Islāmī*. Bayrūt: Dār al-Kutub al-‘Ilmīyyah.

Baḥrī, al-Sa‘īd. 2007. al-Shi‘r fī ẓill al-Dawlah al-Ḥafṣīyyah (Dirāsah tārīkhīyah). Jāmi‘at Mintūrī Qusanṭīnah, al-Jazā’ir.

al-Ḥajjī, ‘Abd al-Raḥmān ‘Alī .1981. *al-Tārīkh al-Islāmī min al-Fatḥ ḥattā Suqūṭ Gharnāṭah (92-898H/811-1492M)*. Bayrūt: Dār al-Qalam.

Ibn Muṣṭafā, Idrīs. 2014 al-‘Alāqāt al-siyāsīyyah wa al-iqtiṣādīyyah li duwal al-Maghrib al-Islāmī ma‘a duwal Janūb Gharb Ūrūbbā fī al-fatrah (7 qabla al-Hijrah wa 10H/13-16M). Jāmi‘at Abī Bakr Balqāyid, Tilimsān, al-Jazā’ir.

Le Tourneau, Roger. 1982. *Ḥarakat al-Muwaḥḥidīn fī al-Maghrib fī al-Qarnayn al-Thānī ‘Ashar wa al-Thālith ‘Ashar*. Tarjamat Amīn al-Ṭībī. Tūnis: al-Dār al-‘Arabīyyah li al-Kitāb.

al-Ṣallābī, ‘Alī ibn Muḥammad. 1998. *Ṣafaḥāt min al-Tārīkh al-Islāmī fī al-Shamāl al-Ifrīqī (Dawlat al-Muwaḥḥidīn)*. ‘Ammān: Dār al-Bayāriq.

al-Ṣallābī, ‘Alī ibn Muḥammad. 2013. Dawlat al-Murābiṭīn. *al-Mawsū‘ah al-Islāmīyyah al-Muwaththaqah*.

al-Ṣallābī, ‘Alī ibn Muḥammad. 2014. Maqālāt tārīkhīyyah mufradat. Mawqi‘ ṭarīq al-Islām ‘alā al-intarnit.

al-Sirjānī, Rāghib al-Ḥanafī Rāghib. 2011. *Qiṣṣat al-Andalus min al-Fatḥ ilā al-Suqūṭ*. al-Qāhirah: Mu’assasat Iqra’ li al-Nashr wa-al-Tawzī‘.

Yaḥyāwī, Ḥafīẓah. 2011. Ishāmāt Nuḥāt al-Maghrib wa-al-Andalus fī Ta’ṣīl al-Dars al-Naḥwī al-‘Arabī khilāl al-Qarnayn al-Sādis wa al-Sābi‘ al-Hijrīyayn. Tūnis: Manshūrāt Makhbar al-Mumārasāt al-Lughawīyyah.